الحضارة الإسلامية الأندلسية

تفاهم حضاري إنساني

أ.د. أحمد حلواني*

معالي الأستاذ الدكتور أبو عمران الشيخ
رئيس المجلس الإسلامي الأعلى
الأساتذة والباحثون الكرام
الحضور الأفاضل ؤ
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تمهيد

الحديث عن الأندلس بالنسبة لأهل الشام هو حديث ذو شجون فالأندلس بالنسبة إليهم شكّل ملجأ رحباً وخصباً بعد سقوط دولتهم الأموية في دمشق وشكل بالتالي بديلاً ثنائياً حطوا فيه رحالهم وآمالهم وخيالهم وفكرهم الخصب. الأمر الذي أحال الأندلس إلى حالة من العطاء والإبداع والإنتاج.

ولذلك فإن تعبير الفردوس المفقود الذي نطلقه في الشام على الأندلس هو تعبير مطابق للصورة المرسومة في ذهن أهل الشام، لكنه يفتقد في الوقت نفسه إلى كثير من التحليل والاستنتاج والإخلاص، وهو ما أتاحه لي المجلس الإسلامي الأعلى في ملتقاه العتيد حين خصصه للحضارة الأندلسية فأتاح فرصة متابعة ما قدمه الأساتذة والباحثون في الحضارة الإسلامية في الأندلس من عرب وعجم وأجانب مستفيدين من المعطيات العلمية الجديدة ومن الأجواء الفكرية التي يعيشها عالمنا المعاصر المليئة بأفكار حرية البحث والتعبير والاستنتاج.

---

* الجمعية العربية للعلوم السياسية جامعة دمشق، سورية.

التاريخ مليء بالأحداث بجانبيه الحلو والمر المضيء والمظلم، المفرح والمحزن، والوقوف على هذه الأحداث بحاجة إلى كثير من التأمل والتفكير والتحليل والتعقّل.

ومن هنا تأتي أهمية الدراسات التاريخية وخطورتها أيضاً في العلوم الاجتماعية التربوية الحديثة والعلوم الإنسانية بشكل عام.

لقد شكّل التاريخ الأندلسي حقبة هامة في التاريخ العربي الإسلامي، والإسباني الأوربي المسيحي. وامتلأت هذه الحقبة بصراعات مريرة وعلاقات حميمة وحروب ودمار، وبناء وازدهار. امتلأت بالبغض والكراهية كما امتلأت بالمحبة والاندماج والتلاقح والقرابة والإبداع.

وشواهد هذا الإنتاج كثيرة قائمة، شاهدة مستمرة، سواء على صعيد العمران، فهي صروح تجذب جميع أنظار العالم الباحثين والدارسين والسياح، وعلى الصعيد العلمي نقاط علاّمة في مراحل تطور العلوم الطبية والفلكية والزراعية.

وفي ميدان الفكر والأدب أساطين وملاحم وقمم تزركش روائع الأدب العالمي وتدلل على عظمة وأهمية ما أنتج وأبدع.

فهل نتوقف عند الخصومة والحروب والصراعات؟ أم نتوقف عند الإنتاج و الإبداع والمحبة ؟

ماذا نستفيد إن توقفنا عند الأول ؟ مزيد من العداء وتأجيج الثارات وتحويل الطاقات إلى طاقات مدمِّرة وهو تماماً ما يفعله البعض من أصحاب العقول المغلقة في الوقوف على نقاط الصراع والمآسي والاقتتال وقصص النهب وتفعيل الثار وصولاً إلى أدلجته والبناء عليه.

في حين أن الوقوف عند الإنتاج الحضاري والإبداع الفكري والعلاقات الإنسانية وما أعطت وأثمرت هو ما يمكن أن يؤدي إلى حالة

صفاء في الحياة الإنسانية القائمة وفتح آفاق جديدة تخصب الإنتاج والازدهار والتطور، وتفتح مجالات للتعاون والتقارب والتفاهم والعطاء والإنتاج من أجل الارتقاء والتقدم الحضاري وهو ما أحب أن أتوقف عنده فيما قدمته الحضارة الأندلسية من رفد للحضارة الإنسانية عند وجود فسحة من المحبة والتفاهم والتسامح وقبول التعامل مع الآخر بنديّة إنسانية لا خصومة عدائية وحشية.

وهو ما أتطلع أيضاً أن يشكل قاعدة في كل مراحل العمل الحضاري الإنساني السياسي منه وغير السياسي بحيث يشكل رداً واقعياً ملموساً على نظرية صراع الحضارات، وتأسيس نظرية مقابلة هي نظرية تفاهم الحضارات في إطار التعامل الإنساني الراقي والمنفتح مستفيدا من تجارب التاريخ الإنساني.

الحضارة الأندلسية التي جاءت من نتاج الحضارة الشامية الإسلامية والمغاربية المتوسطية الإسلامية وتلاقيها مع الحضارة الاسبانية الأوربية المسيحية هي حضارة تفاهم وتكامل ولعل الوقوف عند معالم منها هو ما يمكن أن يشكل شواهد مضيئة تنير طريق نظرية التفاهم والمحبة والتكامل.

هذه الحالة التي قدمنا لها هي حالة متكررة في الحياة العربية والإسلامية، بل وفي الحياة العالمية كلها وبالتالي فإن أساتذة علوم التاريخ والاجتماع والسياسة منكبّون عليها فيما نستطيع أن نسميه علوم المستقبل التي تستمد من التراث منابعها وتبحث عما نبت في الحضارة الإنسانية من خيرات لتعيد إنماءها بما يتواءم والأوضاع الجديدة أمام ما يطلق عليه بالمستجدات المتوائمة مع المعاصرة والحداثة وما بعد الحداثة.

فعلاقة شعوب المتوسط علاقات متداخلة فيها الإيجابي وفيها السلبي من اليونان والرومان في العصور القديمة إلى الاستعمار الغربي لشمال إفريقيا، وإفريقيا كلها في العصور الحديثة مروراً بالطبع بالحياة الإسلامية وعلاقتها وفتوحاتها وتشعباتها.

والخلافة العثمانية حالة من هذه الحالات أيضاً بعلاقاتها العربية والتركية والأوربية ولاسيما في البلقان وحتى أوسط آسيا مروراً بالشيشان والقوقاز والأوزبك وشعوب قزوين عموماً وصولاً إلى التيبت.

هذه الحالات فيها من الاستنتاجات والعبر الكثير وكلها بالنتيجة إذا ما أردنا وفق العقل الحضاري المعاصر تشير إلى أن طريق البناء الحضاري هو طريق البحث عن المحبة والتفاهم والتعاون والتواصل المنفتح بدل الانغلاق والتعصب والأطماع والاقتتال المؤدي إلى الخراب والهدم وروح العداء.

وتلك هي أهمية هذا المؤتمر العتيد عن الحضارة الأندلسية وما أنتجته من عطاءات حضارية لا يمكن إغفالها وفق ما تحدث عنها الأساتذة المحاضرون وما يتحدثون.

فضيلة هذا الجمع من العلماء والباحثين من عرب ومسلمين وأسبان وأوربيين ومسيحيين عموماً في رأيي هي في هذا البحث عن النتاج الحضاري الإيجابي متجاوزين فيه الحساسيات التي حاول المتعصبون أو بعض الباحثين دون قصد في التوقف عند الخلافات وبالتالي تأجيج الحساسيات وتعصب في المواقف التاريخية لا جدوى منه في مفهوم التعايش الإيجابي والعطاء الحضاري.

إذا أردنا أن نعدد النتاج الحضاري الأندلسي فقد نصل إلى مجلدات ومجلدات وهو ما اعتقد أن غالبيتكم تعرفونه لكنني أريد التوقف عند عطاءات ومعالم قائمة حتى الآن بفضل ما أسلفت من تعاون وتفاهم وتحابب في حين أن القتال والتعصب لم يترك من آثار معلميه سوى الدمار.

شواهد من الحضارة الأندلسية

قرطبة ـ توليدو: وعصرها السيادي حيث أطلقت عليها البرفسورة الأمريكية ماريا روزا مينوكال الأستاذة في جامعة ييل الأمريكية (درّة العالم) «Ornament of the world» أو مفخرة العالم أو توشيحة العالم

كما ترجمها البعض مؤخراً، حيث تستعرض الأستاذة الانجازات المذهلة لدولة المسلمين في الأندلس والتي تؤكد أن الحضارة التي قدمتها الأندلس كانت حجر الأساس في الحضارة الغربية التي بدأت بوادرها بالظهور في عصر النهضة الأوربية وهي بهذا تؤكد أن العصور الوسطى التي يعدونها فترة مظلمة في حياة القارة الأوربية كانت فترة انبعاث ونهضة في جنوب القارة الأوربية حيث كان المسلمون يشيدون حضارة إسلامية إنسانية راقية.

والمؤلفة تضع عنواناً آخر لكتابها عن قرطبة درّة العالم وهو عنوان تفسيري.. «كيف ابتدع المسلمون واليهود والمسيحيون ثقافة تسامح في اسبانيا في القرون الوسطى» وهو ابتداع ترك آثاراً تدل على أن تقدم قرطبة يصل إلى حد الإعجاز فإلى جانب التركيز على العلوم وفنون العمارة وتنظيم شبكات الري والماء الجاري وتنظيم المزروعات فقد شهدت الحياة في قرطبة رفاهاً يجسد جانباً منه إنشاء الشوارع المعبدة مع إنارة ملائمة مع تشييد (900) حمام في المدينة دلالة على الحرص على النظافة والصحة العامة وإقامة مئات المساجد مجالاً للحياة الإيمانية والاجتماعية والتنظيمية وإقامة آلاف الحوانيت دليل انتعاش الحياة الاقتصادية والتجارية.

غير أن الجانب الملفت للانتباه على حد تعبير «البرفسورة مينوكال» هو الحضور الثقافي والفكري الذي تعبر عنه مكتبات قرطبة الضخمة إذ ضمت مكتبة الخليفة عبد الرحمن الثالث أكثر من نصف مليون مجلد فهرس محتوياتها جاء في أربعة وأربعين مجلداً, ومكتبة عبد الرحمن الثالث كانت واحدة من عشرات المكتبات الأخرى في قرطبة ولم تكن هذه المكتبات تقتصر على كتب علوم الدين واللغة فقط بل كانت تضم نفائس من مختلف العلوم أدهشت مسيحيي أوربة ممن ارتادوها أو تعرفوا عليها فيما بعد. فقد كانت تضم كنوزاً ممّا ترجم إلى العربية من فلسفة الإغريق وعلومهم بالإضافة إلى فلسفات وعلوم الهند وفارس وغيرها.

ولم تكن تلك المكتبات والكتب تحتوي على الترجمة فقط إنما كانت تضم التطوير الذي ابتدعه الأندلسيون على تلك العلوم المترجمة سواء في العلوم التطبيقية كما في الفلك والاصطرلاب الذي طور إمكانية الاهتداء لطرق السير في البحار والتي وضعت أسس حركة المستكشف كولومبس الذي حرص أن يضم فريقه مترجماً يتقن العربية وما يعنيه ذلك.

يبرز كتاب درة العالم «قرطبة» على العقلية المنفتحة للمسلمين حيث يبرز تسامح المسلمين والجو الذي سادها في مجال العيش المشترك الأمر الذي أشاع اللغة العربية بين جميع السكان. وفتح مجال الاعتناق للدين الإسلامي بمحض الاختيار من السكان الأصلين ونستطيع أن نقتبس مما كتبه «بول الفاروس» أحد أبرز رجال الدين المسيحيين في قرطبة في عهد الخليفة عبد الرحمن الثالث حيث يقول «يحب المسيحيون أن يقرأوا شعر العرب وقصصهم الرومانسية وهم يدرسون كتب الفلاسفة وعلماء الدين العرب، لا ليفنّدوا هذه الكتابات وينقدوها بل ليكتسبوا لغة عربية صافية وأنيقة»...

«إن المسيحيين يحتقرون الأدب المسيحي الآن، ويعتبرونه غير جدير باهتمامهم، لقد نسوا لغتهم، ومقابل كل شخص يمكنه كتابة رسالة باللاتينية هنالك ألف شخص يستطيعون التعبير عما يريدون قوله وبكل أناقة باللغة العربية وكتابة قصائد الشعر بهذه اللغة بأسلوب يتفوق على ما يكتب به العرب أنفسهم».

. قصر الحمراء : الذي يعد بدعة من بدع الحضارة فهو مرشح في هذا الوقت بالذات كواحد من أحد وعشرين معلماً من معالم العالم التي سيتم اختيار سبعة منها لتصنف ضمن عجائب الدنيا السبعة بعد اندثار العجائب السبع السابقة ماعدا أهرامات مصر.

يقول أمين الريحاني في وصف زيارته للأندلس ولقصر الحمراء :

«من حسنات الحياة زيارة الأندلس، ومن الكفارات عن ذنوب الناطق بالضاد الحج إلى الحمراء... ومن حظي أني كنت من الحاجين..».

ويمضي في الحديث حتى يقول :

«طلول كانت بالأمس معاهد وقصوراً، وقصور كانت يوماً دائرة المجد وقطب الحبور. في قناطرها وقبابها وأبوابها صناعة دقيقة نادرة، وفي كل رسم من رسومها آية جمال تدهش حتى اليوم أرباب الفن، وفي كل بيت من الشعر على جدرانها درة من المعنى، أو زهرة من التقوى، منقوشة في بلاط منقطع النظير لونا وتذهيباً.. لله عزك يا ابن أمية، ومجدك يا ابن عباد!

أي «عبد الرحمن» و«المنصور» و«المعتمد» من شادوا معاهد العلم والدين :

طالما اهتزت النفس لذكر مآثركم، وطالما وقفت العين شغفا عند أسمائكم في التاريخ. ولطالما تاقت النفس مني والعين إلى مشاهدة ما تبقى من تلك الآثار المجيدة. وها قد استجيبت طلبتي، وتحقق اكبر آمالي، فقد وطئت أرضا عطرتها شمائل العرب، وجلت بلاد عمَّرتها همم العرب، ووقفتُ أمام عروشٍ هدمتها عصبيةُ العرب.

- الزراعة والري.

- الترجمة.

الفلسفة: ابن رشدْ وابن باجه وعنه نقرأ :

ظهر في الأندلس في أواخر القرن الحادي عشر للميلاد،واشتهر بالطب والرياضيات والفلك، وكان محل تقدير العلماء والمؤرخين وانتقاداتهم في الوقت نفسه شأنه شأن غالبية الفلاسفة فقد اعترف بفضله ابن القفطي، وابن أبي أصيبعة، وابن خلدون، والمقري، ولسان الدين

الخطيب، وغيرهم وقالوا عنه إنه علاّمة وقته ومن أكابر فلاسفة الإسلام. ولقد بلغ الغاية في بعد الصيت والشهرة والذكر الواسع العريض ونال إعجاب ابن رشد وابن طفيل. جاء في كتاب (حي بن يقظان) عند التعرض لأهل النظر (أن ابن باجة كان ثاقب الذهن صحيح النظر صادق الرؤية..).

وضع ابن باجة كثيراً من المؤلفات،في أرسطو وشروحه، والمنطق، والطب، والهندسة، والنبات والأدوية المفردة، والفلك، والنفس، والعقل. ولسوء الحظ ضاع معظمها وبقي منها رسائل وصفحات في ترجمات لاتينية وعبرية. وله كتاب عثر عليه أخيراً في مكتبة برلين. قال عنه د.عمر فروخ: «غير أن الدهر لم يشأ أن يقسو على ابن باجة كثيراً فإنه قد حفظ لنا مخطوطة عظيمة الفائدة في مكتبة برلين العامة تقع في 440 صفحة».

وهذا المخطوط قد غيّر أحكام العلماء على ابن باجة، وأزال الغموض عن بعض النقاط وألقى نورا على تراثه وآرائه.

وابن باجة فيلسوف، بنى فلسفته على الرياضيات والطبيعيات, وهذا ما أراد الفيلسوف الألماني كانط أن يسير عليه في فلسفته. ومن هنا يرى بعض الباحثين أن (ابن باجة خلع عن مجموع الفلسفة الإسلامية سيطرة الجدل, ثم خلع عليه لباس العلم الصحيح وسيّره في طريق جديد..). وكذلك فصل الدين والفلسفة في البحث، فهو بذلك أول فيلسوف في العصور الوسطى نحا هذا النحو. ويقول د.فروخ: (...لما وقف ابن باجة ـ كما وقف من سبقه من فلاسفة الإسلام ـ أمام مشكلة الخلاف بين الشريعة والحكمة، نتجت له عبقريته أمرا مهما جداً. ذلك بأنه ليس من الضروري أن يهتم بأمر لم يستطع أحد من قبله أن يبحث فيه. من أجل ذلك لم يتعرض ابن باجة للدين بل انصرف بكليته إلى الناحية العقلية..).

وهو يرى في بحثه عن الحقيقة والعدل سعادة اجتمعت حول نفسه، وإن الحياة السعيدة يمكن نيلها بالأفعال الصادرة عن الرؤية، (وتنمية القوى العقلية تنمية خالصة من القيود) وقد بين هذا كله وأشار إلى الأفعال الإنسانية وأنواعها في كتابه (تدبير المتوحّد).

وفي رأي ابن باجة أن الفرد لكي يعيش كما ينبغي أن يعيش الإنسان على نور العقل وهديه، عليه أن يعتزل المجتمع في بعض الأحايين. وهو يطالب الإنسان بتعليم نفسه بنفسه وفق طريق التعلم الحديثة بدل نظرية التعليم.

كما يطالب الحكماء أن يؤلفوا جماعات صغيرة أو كبيرة وأن يبتعدوا عن ملذات الحياة العامة ونزعاتهم ويعيشوا على الفطرة.

ولابن باجة رسالة الوداع، فقد كتبها قبيل رحلة طويلة وبعث بها إلى أحد أصدقائه من تلاميذه ليكون على بينة من آرائه فيما يتعلق بمسائل يراها ذات أهمية.

وفي هذه الرسالة تتجلى رغبة (ابن باجة) في الإشادة بمقام العلم والفلسفة،ذلك لأنهما جديران بإرشاد الإنسان إلى الإحاطة الطبيعية وبمعرفة ذاته، وقد ضمن هذه الرسالة بعض آرائه الفلسفية، ومنها أن المحرك الأول في الإنسان هو أصل الفكر وأن الغاية الحقيقة من وجود الإنسان ومن العلم هي القرب من الله والاتصال بالعقل الفعال الذي يفيض منه.

وابن باجة ينتقد الغزالي، ومن رأيه أنه خدع نفسه وخدع الناس حين قال في كتاب (المنقذ) (أنه بالخلوة ينكشف للإنسان العالم العقلي، ويرى الأمور الإلهية فيلتذ لذة كبيرة) وكذلك نقد ابن سينا فيما ذهب إليه من أن انكشاف الأمور الإلهية والاتصال بالملأ الأعلى، يحدث التذاذا عظيماً. ويقول إن هذا الالتذاذ هو للقوة الخيالية لا غير. وعلى كل حال يمكن الخروج بالقول إن ابن باجة أعطى الفلسفة العربية في الأندلس حركة ضد الميول الصوفية، وأن العلم النظري وحده قادر على الوصول بالإنسان إلى فهم ذاته وفهم العقل الفعال.

وقد تأثر ابن رشد بهذه الآراء، والآراء التي تتعلق باتحاد النفوس وكذلك كان لها أثر كبير عند الفرق المسيحية وفلاسفة الكنيسة مما جعل القديس توماس والبرت الأكبر يؤلفان رسائل خاصة لإبطالها.

وبذلك يكون ابن باجة (قد مهّد السبيل الجيد الصحيح في الشرق والغرب معاً) ولعل هذا من أهم العوامل التي جعلت بعض معاصريه يحملون عليه كما هو حال معظم من اشتغل بالفلسفة فقالوا إنه: «قذى في عين الدين وعذاب لأهل الهدى» وجاء في كتاب قلائد العقيان للفتح بن خاقان (وقد اشتهر ابن باجة بين أهل عصره بهوسه... واشتغاله بسفاسف الأمور،ولم يشتغل بغير الرياضيات وعلم النجوم، واحتقر كتاب الله الحكيم وأعرض عنه. وكان يقول إن الدهر قد تغير باستمرار وأن لا شيء يدوم على حال، وإن الإنسان كبعض النبات والحيوان، وإن الموت نهاية كل شيء...)

هذه الأقوال التي نسبت إلى ابن باجة دفعت بعض منافسيه ممن أعماهم الحسد والجهل إلى أن يتهموه بالزندقة وأن يقتلوه بالسم في سنة 1138م.

ولابن باجة أثر كبير في الغرب المسيحي وفضل عظيم في ازدهار الفلسفة في المغرب. وقد تتلمذ عليه جماعات لمع أفرادها في ميادين البحث فتأثر به وبنتاجه علماء اشتغلوا في الفلك والرياضيات والطب. فكان له ملاحظات قيمة على نظام بطليموس في الفلك، وقد انتقده وأبان مواضع الضعف فيه. وكان لهذه الملاحظات وذلك النقد أثر على جابر ابن الأفلح ودراساته في الفلك مما دفعه إلى إصلاح المجسطي في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد. ويؤيد مؤرخ العلم (سارطو) الأمريكي هذا كله، ويضيف إليه بأن البطروجي تأثر كذلك بآراء ابن باجة في الفلك حتى قاده ذلك إلى القول بالحركة اللوبية.

وامتد أثر ابن باجة إلى الطب فاستشهد به ابن البيطار في كتاب (الأدوية المفردة) في مواضع كثيرة، واعتمد على رسالته في الطب.

وفوق ذلك كان أثر ابن باجة واضحاً في الطريق التي سار عليها ابن طفيل في كتابه (حي بن يقظان) كما كان أثره بالغاً في ابن رشد واتجاهه العقلي.

(ويرى مونك أن نظرية ابن رشد في العقل والخلود التي أثار بها أوربا النصرانية، إنما هي نظرية ابن باجة).

وعلى الرغم من قلة المصادر التي تتناول آثاره أو حياته فإن الغربيين قد عرفوا فضله وأدركوا ما تنطوي عليه فلسفته من الرسائل القليلة التي اطلعوا عليها، قال رينان: «ولا ريب أن ابن باجة من أعاظم الذين عملوا على ازدهار عصرهم ومن الذين حرصوا أن تبلغ الفلسفة العقلية فيه المستوى الذي بلغته».

والعلامة ديوبور يرى أن آراء ابن باجة في الطبيعة وفيما بعدها متفقة في جملتها مع ما ذهب إليه المعلم الثاني وأن (الشيء) الوحيد الذي له بعض الشأن هو طريقته في بيان تكامل العقل الإنساني ومبلغ الإنسان في العلم.

والتفسير وأبعاده المنفتحة كتفسير القرطبي، والقضاء وتشريعاته التي اتسمت بتشريعات أندلسية فيها من الأبعاد الإنسانية الشيء الكثير، والتوجهات النفسية والفلسفية للصوفية ولاسيما عند ابن عربي الذي أخذ من الأندلس وانتشر في الشام وبات معلماً صوفياً في الأندلس الشامي!

ورحلة المغاربي إلى المشرق وجهاده الثقافي والعلمي والدفاعي أيضاً هي رحلة الإنسان إلى نفسه يبحث فيها عن الجنة والأصول وهي تعبير عن الوفاء أيضاً وتمتين لأواصر التلاقي والتعاون المفتوح من أجل مزيد من النماء والعطاء تأكيداً للطموح المزروع في قلب الشخصية الإسلامية إخلاصاً وعطاء للإسلام والإنسانية جمعاء.

الرحلة إلى المشرق كانت وما تزال بالرغم من المتغيرات ومحاولات الاستغراب تعبير عن ثلاثة معانٍ.

1. إن المشرق الإسلامي يمثل عاصمة الثقافة الإسلامية ومركزها وإكمال التحصيل العلمي الذي أخذه في الأندلس والمغرب لابد من تتويجه بشهادة شرقية من دمشق أو بغداد أو القاهرة أو المدينة المنورة ومكة المكرمة.
2. إن المشرق هو أرض الله الواسعة التي يُلتمس فيها الجاه والمكانة والانتشار.
3. إن المشرق كما قدمت هو مكان الاكتمال للشخصية الثقافية الإسلامية ولا سيما للأندلسيين والمغاربة وهو موضع الحج وزيارة الأراضي المقدسة حيث كانوا يحجون ويجاهدون ويتوجون علمهم بمعارف جديدة فإما أن يستقروا وإما أن يعودوا فإذا استقروا صاروا مغاربة مشارقه وإذا ما عادوا باتوا مشارقه مغاربة وفي ذلك كنه ما زال قائماً بالرغم من ضعف الحالة الإسلامية المندمجة بالثقافة العربية نتيجة الهجوم الشديد عليها وتراخي أهلها بعد أن زكم أنوفهم مال النفط والطمع الزائف وبهرجة ثقافة الاستغراب والخواء الحضاري الذي نعيشه..

الجغرافية والرحالة.. الحميري - ابن جبير ...إلخ

يقول د.نقولا زياده في ابن جبير :

يعدّ ابن جبير من كبار رحّالي العرب، وهو ولاشك أكبُر رحّالي القرن الثاني عشر ميلادي.

ولد في بلنسية بالأندلس سنة 1145م- 540هـ، وسمع من أبيه، وأخذ القراءات عن ابن أبي العيش، وعني بالأدب والشعر فبلغ فيهما الغاية، وخلّف شعرا كثيرا. وأكبر آثاره الأدبية رحلته المسماة «تذكرة بالأخبار عن اتفاق الأسفار».

كان ابن جبير كاتبا للسيد ابن سعيد بن عبد المؤمن صاحب غرناطة، وكان هذا يوماً على شرابه، فاستدعى ابن جبير ليكتب له، وناوله كأساً، لكن ابن جبير أظهر الامتعاض من ذلك لأنه لم يشرب قط في حياته. لكن السيد أقسم عليه أن يشرب منها سبعا، فقبل ابن جبير مرغماً، فكافأه ابن سعيد بأن ملأ الكأس له سبع مرات بالدنانير، فقرر ابن جبير ساعتها أن يجعل كفارة شربه الحج بتلك الدنانير، وقد راق ذلك للسيد، فأسعفه وأعانه.

كان خروج ابن جبير من غرناطة يوم الخميس في 8 شوال سنة 578هـ/1182م ودخل الإسكندرية بعد شهر قضاه على ظهر البحر بين سبتة وبين الإسكندرية. وكانت سفرته تلك في سفينة للجنويين. ومن الإسكندرية انتقل ابن جبير إلى القاهرة، ثم مر بقوص وعيذاب وجدة في طريقة إلى الأماكن المقدسة، وبعد ذلك اجتاز الطريق النجدي إلى الكوفة. وكانت بغداد والموصل بين المدن التي زارها في العراق، وكانت عودته بطريق حلب وحماة وحمص والنبك ودمشق وعكا. ومن هناك أقلع في مركب للإفرنج إلى صقلية مارا بصور.

ووصل إلى غرناطة في 8 محرم سنة 581هـ/1185م.

وكان من رفقاء الرحلة والحج جده لأمه، القاضي ابن عطية، وأبو جعفر الطيب.

وقام ابن جبير بعد ذلك برحلتين إلى المشرق ذلك أنه لما شاع الخبر بفتح بيت المقدس على يد صلاح الدين قوي عزم ابن جبير على رحلته الثانية فخرج من غرناطة في 9 من ربيع الأول 585هـ/1189م وعاد إليها في شعبان 587هـ/1191م مما يدل على شدة التواصل وعمق ترابط الأمة.

وبعد نحو ربع قرن قضاها ابن جبير في غرناطة وملقة وفاس مهتما بإسماع الحديث والتصوف توفيت زوجته عاتكة أم المجد وكان كلفه بها شديداً فاشتد حزنه عليها وخرج من المغرب حاجا مجاورا في مكة وبيت المقدس وعاد إلى القاهرة والإسكندرية وشغل بالحديث حتى وفاته 614هـ/1217م.

وتذكرة ابن جبير هي أخبار رحلته الأولى وقد دونها صاحبها على شبه مذكرات يومية يستعمل فيها دائما التاريخين القمري (مع السنة الهجرية)والشمسي (دون ذكر السنة) وقد عني كاتبها بالرسوم الدينية والنواحي الاجتماعية عناية فائقة فمشاعر الحج مدونة كلها وصعوبات السفر ومواكب الأمراء وتجارة مكة كلها موصوفة وصفا بارعا دقيقا ورحلته فيها كثير من الصور التي توضح العلاقات بين أهل البلاد والصليبين في سورية ويشير غير مرة إلى الحياة الاقتصادية من حيث المزروعات والسلع المتبادلة وابن جبير شديد العناية بالبحث عن المدارس والمارستانات وليس هذا بغريب على رجل عالم فقيه وهو في كل هذا دقيق الملاحظة سهل العبارة واضح الأسلوب

وقد أثر ابن جبير في كثير من الكتاب الذين جاءوا بعده فنقلوا أجزاء كبيرة من رحلته وليس أدل على ذلك من أن محرر رحلة ابن بطوطة نقل عنه وصف كل من حلب ودمشق وبغداد وقد تناول ابن جبير في الجزء الأخير من رحلته صقلية بوصف رائع وروى أخبارها بشكل يجعل هذا القسم مصدراً رئيسا من مصادر تاريخ صقلية في زمن وليم الثاني وخاصة فيما يتعلق بعلاقة السكان المسلمين في الجزيرة بحكامها الأوربيين.

وقد وصف بعض الأماكن التي زارها ومنها الموصل وهي إحدى عواصم إقليم الجزيرة في شمال العراق الحالي التي قال فيها وأما البلد فموضوعه ضخم جدا حفيل التركيب بديع الحسن واسع الأسواق كبيرها متصلة الانتظام مستطيلة تخرج من سماط صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية وكلها مستوف بالخشب فكأنها في ظلال وارفة فكل سوق منها تقيّد الأبصار حسنا وتستوقف المستوفز عجبا وأما قيساريتها فحديقة بستان نظافة وجمالا مطيفة بالجامع المكرّم لايتشوق الجالس فيها مرأى سواها ولو كان من المرائي الرياضية وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة فقد اتصل السماط خزانة واحدة وتخللتها شرف خشبية بديعة النقش وتفتحت كلها حوانيت فجاء منظرها أجمل منظر وكل سماط منها يتصل بباب من أبواب الجامع المكرم وقراها عامرة منتظمة لأنها على محرّث عظيم مد البصر عرضا وطولا وخانات هذه الطريق كأنها القلاع امتناعا وحصانة وأبوابها حديد وهي من الوثاقة في غاية.

وعيذاب وهي مدينة على ساحل البحر الأحمر حيث يقول عن الغوص على اللؤلؤ وفي بحر عيذاب مغاص اللؤلؤ في جزائر على مقربة منها وأوان الغوص عليه في هذا التاريخ المقيد في هذه الأحرف وهو شهر يونيو العجمي والشهر الذي يتلوه ويستخرج منه جوهر نفيس له قيمة سنية يذهب الغائصون عليه إلى تلك الجزائر في الزوارق ويقيمون فيها الأيام فيعودون بما قسم الله لكل واحد منهم بحسب حظه من الرزق والمغاص منها قريب ليس ببعيد ويستخرجونه في أصداف لها أزواج كأنها نوع من الحيتان أشبه شيء بالسلحفاة فإذا شقت ظهرت الشفتان من داخلها كأنها محارتا فضة ثم يشقون عليها فيجدون فيها الحبة من الجوهر قد غطى

عليها لحم الصدف فيجتمع لهم من ذلك بحسب الحظوظ والأرزاق قال فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ رضي الدين القز ويني، رئيس الشافعية، وفقيه المدرسة النظامية، والمشار إليه بالتقديم في العلوم الأصولية، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لصفر، فصعد المنبر وأخذ القراء أمامه في القراءة على كراسي موضوعة، فتوقوا وشوقوا وأتوا بتلاحين معجبة ونغمات مطربة. ثم اندفع الشيخ الإمام المذكور، فخطب خطبة سكون ووقار، وتصرف في أفانين من العلوم، من تفسير كتاب الله عز وجل، وإيراد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، والتكلم على معانيه، ثم رشقته شآبيب المسائل من كل جانب، فأجاب وما قصر، وتقدم وما تأخر، ودفعت إليه عدة رقاع فجمعها جملة في يده، وجعل يجاوب على كل واحدة منها، وينبذ بها إلى أن فرغ منها، وحان المساء فنزل وافترق الجميع، فكان مجلسه مجلس علم ووعظ، وقورا هينا لينا، ظهرت فيه البركة.وهكذا فقد كان ابن جبير مدرسة في الوصف وتقديم المعلومات موسوعياً في عرضه للعلوم والمشاهد هادفاً غير شارد.

الشعر والأدب والنقد : كما عند ابن عبد ربه في عقده الفريد وأبو علي القالي والطرطوشي في سراج الملوك وشعراء التروبادور ـ والبروفنسال، ومشاركة المرأة في الحياة العامة السياسية منها والأدبية وبروز أسماء كبيرة في هذا المجال ليست ولادة بنت المستكفي أبرزهم إنما نساء رائدات أخريات ستمر عليهن بعض الأبحاث الأخرى بالإضافة إلى الفن بجميع أشكاله الموسيقية والتشكيلية والغنائية والتي ما يزال صداها منتشراً في الغرب والشرق في أوربة وفي البلاد العربية حيث الموشحات الأندلسية وموسيقى المألوف.

وإذا أردنا أن نتوقف قليلاً عند السياسة وآدابها فنستطيع أن نذكر ما جاء في كتاب تاريخ الفكر الأندلسي لبالينثيا والذي ترجمه بجدارة المرحوم الأستاذ الدكتور حسين مؤنس والذي تحدث فيه عن المواعظ السياسية الأخلاقية تحت بند التربية حيث يقول :

المواعظ السياسية الأخلاقية فن أدبي يقتصر ذيوعه والعناية به (في اسبانيا) على أيام فرناندو الثالث وألفونسو العاشر عادة. والغالبية العظمى من آثار هذا الفن مجموعات من الحكم والأمثال عرفها الأسبان عن طريق ما صنفه العرب فيها أو نقلوه عن غيرهم منها. وأهم هذه الكتب "كتاب العلماء الاثني عشر" *"Libro de los doce sabios"* أو "كتاب في النبل والإخلاص" *"De la nobleza y lealtad"* وهو مجموعة من الحكم ذات طابع سياسي، "وكتاب زهور الفلسفة" *"Flores de filosofia"* وهو مجموعة من الأقوال المأثورة تنسب إلى سنيكا وفلاسفة آخرين لم تذكر أسماؤهم، وبعض حكماء المشارقة (وهذه المجموعات توجد في ثنايا قصة الفارس السفار El Caballero Cifar) ومن هذه الكتب أيضاً كتاب "بونيوم أو الأقوال الذهبية" Bonium o Bocados de oro، وهو مقتبس من "كتاب الأمثال" لأبي الوفا مباشر بن فاتك، الذي جمع فيه طائفة من أقوال فلاسفة الهنود واليونان واللاتين والعرب سمعها الملك بونيوم ملك فارس أثناء زيارته لقصر العلماء.

وعن العربية أيضاً اقتبس الكتاب المسمى *"بوريدات دِ بوريدادِس" "Poridat de Poridades"* أي *"سر الأسرار" "Secretum secretorum"* وهي نصائح أخلاقية دينية للملوك. وقد كان كتابا *"بونيوم"* و *"سر الأسرار"* الأساس الذي انشأ حوله (خايمه الأول) ملك أرغون مؤلفه المسمى *"كتاب الحكمة" "Libro de la saviesa"*.

ولنذكر كذلك *"كتاب الأمثال الطيبة"* *"Libro de Buenos proverbios"*، وهو مجموعة من الأمثال ترجمت عن *"حكم الفلاسفة"* لحنين بن إسحاق[1]، وكتاب *"تعاليم الإسكندر ونصائحه"* *"Enseñamientos y castigos de Alexandre"*، ونجد في ثنايا هذا الكتاب (كما نجد في "بونيوم") خطابين موضوعين يقال إن الإسكندر الأكبر وجه بهما إلى أمه.

أما كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" الذي الفه أبو حمو موسى بن يوسف ملك تلمسان (1352/753-1386/788) (نشرة جسبار ريميرو سنة 1983)[2] فهو من طراز كتاب *"نصائح الملك سانشو ووثائقه"* Castigos y documentos del rey sancho وقد ألف أبو حمو موسى بن يوسف هذا الكتاب لابنه ليهذبه ويؤدبه به. ويقول في وصفه جسبار ريميرو إنه "يضم قواعد أخلاقية سياسية تتخللها قطع كثير من النثر أو النثر المسجوع من نصائح وأمثال تاريخية كثيرة" ولا شك أنه ألف على منوال "كتاب السلوان المطاع في عدوان الاتباع" لأبي علي ـ وأبي هاشم أيضاً ـ محمد بن علي بن ظفر الملقب بحجة الدين الصقلي المتوفى 1169/565. وهو يستخرج من الحكايات والأمثال مغزى أخلاقياً.

أما الرياضيات والفلك فما قدمه الأندلسيون مشهود له حتى الآن من المجريطي إلى اقليدس الأندلسي إلى جابر بن أفلح إلى الرقوطي ومن ثم إلى الأطباء وعلماء النبات أمثال الزهراوي والغافقي وابن البيطارو...

---

1. ورد عنوان هذا الكتاب بالاسبانية هكذا *"Sentencias morales"* أي الحكم الأخلاقية. وبمراجعة مؤلفات حنين بن إسحاق عند بروكلمان نجد له مجموعاً من الحكم ضاع أصلها العربي ولم يبق إلا ترجمتها العبرية: سفر موسرى هابيلوسوفيم (حكم الفلاسفة) وقد نقله من العربية إلى العبرية يهوذا بن شالومو الحريزي، ثم ترجمه من العبرية إلى الألمانية أ.لوفنتال A.Loewenthal ونشرها في فرانكفورت سنة 1896 بعنوان *"Sinnsprueche der philosophen"* ويغلب على الظن أن هذا هو المراد هنا ـ 2. طبع كتاب *"واسطة السلوك في سياسة الملوك"* في الجزائر سنة 1874، وترجمة جسبار ريميرو إلى الاسبانية بعنوان «عقد اللالي: وانظر بروكلمان، تاريخ ج 2، ص 330 وملحق ج 2، ص 363.

لقد واجه الفكر العربي في بحثه عن عناصر النهضة في العصر الحديث مواقف متباينة في الإشكاليات.

في الموقف الأول طالب بعض النهضويين بالعودة إلى التراث وامتلاكه مجدداً للاعتماد عليه والانطلاق في معالم النهضة المعاصرة.

أما الموقف الثاني فقد طرح بشدة ضرورة الانقطاع عن التراث ومكوناته مهاجمين الخصوصية والتفرد وعبقرية المكان والهوية مؤكدين على التمسك بعناصر النهضة الغربية الأوربية وهو ما سمي بحركة الاستغراب.

أما الموقف الثالث فقد ركز على أهمية التعددية وإستراتيجية الاختلاف والاعتراف بالآخر والعلاقة بين الخصوصية والكونية وإمكانات التقاطع مع التراث والأصالة والعولمة بآن واحد بحيث تتحول الخصوصية إلى تسامح وانفتاح وإلى اتصال بالعالم بكل مكوناته وصولاً إلى حالة بناء وتعاون لا هو ارتماء استغرابي ولا تقوقع سلفي إنما هو عمل توفيقي أو ما نستطيع أن نسميه في المفهوم الخلدوني مقاربة سوسيولوجية تطابق قراءة الواقع العربي وما يلائمه.

إن النموذجية التي تعطينا إياها نتاجات الحضارة الأندلسية التي قدمنا إلماحات عنها واستمعنا إلى مباحث بشأنها تدلنا على عظمتها هي نتاج العقل التوفيقي المتلائم مع فكرة التقارب والتعاون المنفتح وهو ما نرى أنه المفتاح الأوسع لحركة البناء الإنساني الحضاري الذي يؤكد الحضور والخصوصية لكل شعب وبيئة وأرض وزمان وثقافة ويعطي المجال واسعاً للانفتاح والعطاء والأخذ لضمان مستقبل إنساني يشع بالمحبة والسلام والعيش الحضاري بمستوى متطور ورفيع.

والعصر الحالي في جانبه الفكري قابل ومهيأ لهذا التوجه من حيث قبول الآخر والحرية الفكرية والتكاملية الإنسانية وهذا الحضور هو تعبير واضح عن هذا القبول والاستعداد بالرغم من بعض المحاولات الدولية فرض مفهوم الصدام والأحادية والهيمنة. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.